

تظهير المقاصد الكبرى للقرآن الكريم

مقاربة التقصيد القرآني عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

د. عبد الغاني عيساوي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة/الجزائر.

المقدمة:

منذ توالي التأليف في علم المقاصد بدأ من زمن الترمذي الحكيم، وانتهاء بتأصيلها وتنظيرها على يد الإمام الشاطبي، الذي قَعَدَهَا وجعل لها فصولا وأبوابا في كتابه المشتهر "الموافقات"، فإن حركة تفعيل الكتاب بالمدارسة والاهتمام به شرحا وتفسيرا، ظلت راكدة لقرون طويلة، حتى قدوم رواد الحركة الإصلاحية من أمثال الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا، الذين نَوَّهوا على الكتاب وأرشدوا الطلبة إليه، وفي هذا يقول الشيخ محمد عبد الله دراز تلميذ محمد عبده: "كثيرا ما سمعنا وصية المرحوم الشيخ محمد عبده لطلاب العلم بتناول الكتاب، وكنت إذ ذاك من الحريصين على تنفيذ هذه الوصية"¹.

ثم إن التأليف في المقاصد ظل لأزمنة طويلة مهاب الجانب، لا يُتَنَاول بالتأليف، حتى جاءت كتابات ثلة من المجددين المعاصرين، كان الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أحد هؤلاء الأعلام، الذي أظهر المقاصد بثوبها الجديد، من خلال تفسيره "التحرير والتنوير"، وكتابه "مقاصد الشريعة"، ولأنه عقد العزم على عدم التعويل على ما كتبه القدامى، وندن حول النهي عن ثقافة التحشية التي كانت تغزو الحاضرة العربية الإسلامية، والتي قتلت روح الإبداع والتفكير خارج المؤلف، في جميع الفنون والعلوم والمقاصد أحدها، حاول إعطاء بصمة جديدة غير مألوفة وغير مسبوقة، يقول رحمه الله في مقدمة تفسيره: "فجعلت حقا عليَّ أن أُبدي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وأونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاذ، ولقد رأيت الناس حول

1: مقاصد الشريعة، طه جابر العواني، جمع: عبد الجبار الرفاعي، دار الهادي، بيروت، ط: 01، ت: 2001م، ص: 07.

(القصد القصد تبلغوا)، أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل وهو الوسط بين الطرفين.

ب: التقصيد:

القصد والتقصيد من قَصَدَ، وَقَصَدَ، الْقَافُ وَالصَّادُ وَالذَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، يَدُلُّ أَحَدُهَا عَلَى إِيثَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ، وَالْآخَرُ عَلَى اكْتِنَانٍ فِي الشَّيْءِ، فَالْأَصْلُ: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصِدًا. وَمِنَ الْبَابِ: أَقْصَدَهُ السَّهْمُ، إِذَا أَصَابَهُ فَقَتِلَ مَكَانَهُ، وَكَأَنَّهُ قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عَنْهُ "1"، ويقول ابن منظور: "وأصل [ق ص د] وَمَوَاقِعُهَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْإِعْتِرَافُ وَالتَّوَجُّهُ وَالنَّهْوضُ وَالنَّهْوضُ نَحْوَ الشَّيْءِ، عَلَى اعْتِدَالٍ كَانَ ذَلِكَ أَوْ جَوْرًا، هَذَا أَصْلُهُ فِي الْحَقِيقَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُخْصُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ بِقَصْدِ الْإِسْتِقَامَةِ دُونَ الْمَيْلِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقْصِدُ الْجَوْرَ تَارَةً كَمَا تَقْصِدُ الْعَدْلَ أُخْرَى؟ فَالْإِعْتِرَافُ وَالتَّوَجُّهُ شَامِلٌ لهُمَا جَمِيعًا. وَالْقَصْدُ: الْكُسْرُ فِي أَيِّ وَجْهِ كَانَ، تَقُولُ: قَصَدْتُ الْعُودَ قَصْدًا كَسَرْتُهُ، وَقِيلَ: هُوَ الْكُسْرُ بِالِتَّصْنُفِ قَصَدْتُهُ أَقْصَدُهُ وَقَصَدْتُهُ فَاثْقَصَدَ وَتَقَصَّدَ؛ أَنْشَدَ تَعْلُبُ:

إِذَا بَرَكَتْ خَوْتُ عَلَى نَفْسَاتِهَا ... عَلَى قَصَبٍ، مِثْلَ الْبِرَاعِ الْمُقْصَدِ

وَتَقَصَّدَتِ الرِّمَاحُ: تَكَسَّرَتْ... وَقَصَدَ الْمُخَّةَ قَصْدًا وَقَصَدَهَا: كَسَرَهَا وَفَصَّلَهَا وَقَدِ انْقَصَدَتْ وَتَقَصَّدَتْ "2".

قلت: والتَّقْصِيدُ، مصدر الفعل الثلاثي المزيد قَصَدَ، وهو مضعف العين، وهو على وزن تفعيل بصيغة التكثر والمبالغة في الإتيان بالشيء وأمِّه، واستعماله في اللسان العربي، يأتي بمعنى كسر وهو الأصل الثاني الذي حرره ابن فارس، وهو النهوض نحو الشيء على اعتدال كما حرره ابن منظور.

ومن المعاني التي يزداد لها تضعيف العين (فعل)، الدلالة على التكثر والمبالغة، وذلك مثل: طَوَّفَ إِذَا أَكْثَرَ الطَّوَّافَ،

1: مقاييس اللغة، أحمد بن فارس القزويني، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ط: ت، 1979م، ج: 05، ص: 95، مادة: قصد.

2: لسان العرب، محمد بن مكرم، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط: 03، ت: 1414هـ، ج: 03، ص: 355-356، مادة: ق ص د.

والمعنى الثاني، التَّوجُّه، نحو شَرَّق، إذا قصد المشرق، وغَرَّب إذا قصد المغرب. والمعنى الثالث، الدلالة على النَّسبة، كقولك، كَفَّرت فلانا، أي نسبته إلى الكفر، وكذَّبته إذا نسبته للكذب، وصدَّقته إذا نسبته للصدق.

والتقصيد، بهذه المعاني الثلاث، مراد ومقصود، إذ يمكن القول في المعنى الأول: أن عملية التقصيد تُساق للتكثير والمبالغة، كما أنها للتوجه نحو فن من الفنون وعلم من العلوم، كالتقصيد الحديثي، أي توجه البحث المقاصدي في الدرس الحديثي، أو التقصيد المعاصر، أي وجهته نحو الدراسات المعاصرة، وبالمعنى الثالث، فالدلالة على النَّسبة، كقولك تقصيدات التفسير والفقهِ والحديث، وهي قضايا مطروحة مرادة.

ت: مقارنة:

على وزن مفاعلة، مصدر قَارَبَ، وقَارَبَ في، قاربَ من يقارب، مُقَارَبَةً، فهو مُقَارِب، والمفعول مُقَارَب، وقارب النص، إذا نظر فيه مريدا تحليله، وقارب الشيء الشيء لاصقه وشابهه، وكلها معاني تدل على النظر والدنو والمثابفة.

والمقاربة بحسب القاموس الفرنسي لاروس (larouse) هي: الكيفية التي يتناول بها موضوع ما أو مشكلة ما، والمقاربة حسب تعريف (legendre) في قاموسه التربوي: أنها كيفية دراسة مشكل أو معالجة أو بلوغ غاية، وترتبط بنظرة الدارس إلى العالم الفكري الذي يحبذه في لحظة معينة، وترتكز كل مقاربة على استراتيجية للعمل، وفي تعريف (Maurice Angers): المقاربة هي شكل خاص غير متمزم لاستخدام نظرية علمية¹.

مما سبق يمكن القول أن المقاربة هي عبارة عن مجموعة التصورات والمبادئ والاستراتيجيات التي يتم من خلالها تصور الكيفية التي يتم وفقها معالجة موضوع ما.

والمقاربة وفق تعريفي هي: الطريقة والكيفية التي يتناول بها الباحث والدَّارس موضوعا ما، بمسلكه الخاص وأدواته الواضحة المعلومة، التي يُستطاع فهمها وصياغتها، ثم تبنيها وتطويرها.

فشرط المقاربة - عندي - أن تكون مقدورة التبني من طرف الأتباع ليسهل تطويرها، وتكون بأدوات واضحة معلومة ظاهرة تخص الدَّارس، فيها بصمة تجديدية لم يسبق لها

1: الموقع الإلكتروني للدكتور: كمال الزبيدي،

<https://sites.google.com/site/tarbiapointcom/mojaraba>

بعد تشكلها النهائي، ولا يمنع استمداها من جهود السابقين لبعض زواياها وقضاياها، إذا روعي أن العملية البحثية تراكمية.

ج: التقصيد القرآني:

التقصيد تم تعريفه وضبطه، والقرآن الكريم كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على رسوله المصطفى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ولا نزيد، والتقصيد القرآني مركب إضافي.

وهو بالمعنى الأول: التكثير والمبالغة، أي ممارسة التقصيد داخل القرآن الكريم تكثيرا ومبالغة من ذاته دون الخروج عنه.

وهو بالمعنى الثاني: التوجه نحو القرآن الكريم لاستخراج المقاصد منه.

وبالمعنى الثالث: بالدلالة على النسبة أي قصّدت القرآن الكريم، أي جعلت المقاصد قرآنية فقط.

ومنه فتعريف التقصيد القرآني هو: توجه صاحب الأهلية العلمية نحو القرآن الكريم حصرا لاستنباط واستخراج المقاصد الكبرى، إما بالاستدراك على تأصيلات ماضية، زيادة وإنقاصا، أو تظهير مقاصد جديدة تجلّت من خلال رؤيته وأدواته الخاصة.

وفي مجالات استخدام التقصيد الجديد وميادينه، حصرها الدكتور بوبكر كافي في أربعة، وهي:

1. "إيجاد استنباطات جزئية لم يتطرق إليها المتقدمون من الفقهاء وشراح الحديث، وهذا أمر سائغ وممدوح، والعلم منح وعطايا إلهية، فقد يدخر لمتأخر مالم يفتح به على متقدم.

2. توظيف المقاصد في حل إشكالات حديثة ودفع التعارض بينها، فهذا صراط مستقيم ومهيح لاحب، وجادة مسلوكة من علمائنا وأئمتنا المتقدمين.

3. تعيين تفسيرات ودلالات للمقاصد لم يتطرق إليها المتقدمون، وذلك بتوسيع دلالاتها ، وهذا محل بحث ونظر، وتوقف وتردد.

4. إضافة مقاصد جديدة، وهو أيضا كسابقه محل بحث ونظر والإشكال فيه أشد، والتوقف فيه أولى وأعظم"¹.

قلتُ: وفي جعله لتعيين تفسيرات ودلالات للمقاصد مستحدثة، أمرا متوقفا فيه بل ومحل تردد، بعد إقراره أنها مسألة بحث ونظر، وكذا جعله الإضافة على المقاصد المشتهرة المبنوثة "محل بحث ونظر والتوقف فيه أولى وأعظم"، أقول: هذا الذي فيه كبير نظر، وقد زاد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وعلال الفاسي وغيرهم، مقاصد جديدة، سيأتي بيانها.

المطلب الثاني: التعريف بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتفسيره"التحرير والتنوير":

أ: التعريف بالشيخ:

ولد محمد الطاهر بن عاشور في سبتمبر/أيلول 1879 في ضاحية المرسى بالعاصمة تونس قبل عامين من دخول المستعمر الفرنسي، ونشأ في أسرة علمية وسياسية عريقة تمتد أصولها إلى بلاد الأندلس، وتقلد أبناؤها مناصب مهمة في القضاء والإفتاء والتدريس، وحفظ القرآن وتعلم قواعد اللغة العربية ومداخل أصول الدين في سن مبكرة جدا.

حفظ القرآن في السادسة وأخذ العلم من أعيان علماء تونس وشيوخ جامع الزيتونة الذي التحق به عام 1893 ودرس فيه علوم القرآن والقراءات والحديث والفقه المالكي وأصوله، والفرائض والسيرة والتاريخ والنحو واللغة والأدب والبلاغة وعلم المنطق، كما تعلم الفرنسية على يد أستاذه الخاص أحمد بن وناس المحمودي. ومن أشهر شيوخه الشيخ محمد النجار، والشيخ سالم بوحاجب، والشيخ محمد النخلي، والشيخ محمد بن يوسف، والشيخ عمر بن عاشور، والشيخ صالح الشريف.

عُيّن ابن عاشور في البداية مدرسا من الدرجة الأولى بجامع الزيتونة والمدرسة الصادقية، وكان لتجربته المبكرة في التدريس في جامع الزيتونة ذي المنهج التقليدي

1: مقال: التقصيد الجديد وأثره في قبول الرواية الحديثية وتأويلها، بوبكر كافي، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، عدد رقم: 57، مجلد: 25، سنة: 2021م، ص: 02.

والمدرسة الصادقية ذات التعليم العصري دور كبير في وعيه بضرورة ردم الهوة بين الأصالة والمعاصرة والشروع في التخطيط لإصلاح التعليم في تونس.

أصبح نائباً أول لدى المجلس العلمي في الزيتونة عام 1907، ثم التحق بسلك القضاء عام 1911 عضواً بالمحكمة العقارية، ثم أصبح مفتياً مالكيًا عام 1923، فكبير المفتين عام 1924" تم تعيينه في منصب شيخ الإسلام للمذهب المالكي سنة 1932، وأعيد تعيينه 1945 شيخاً لجامع الزيتونة، وفي هذه المرة أدخل إصلاحات كبيرة في نظامه التعليمي.

عين بعد الاستقلال 1956 شيخاً عميداً للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين حتى عام 1960 حيث أحيل إلى التقاعد بسبب موقفه الراض من الحملة التي شنّها الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة.¹

خلف الشيخ العشرات من المؤلفات والتصانيف، كان أشهرها في الساحة المعرفية: تفسيره للقرآن الكريم: التحرير والتنوير، توفي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في 12 أغسطس/آب 1973 عن سن تناهز 94 عاماً في مدينة المرسى في العاصمة تونس. رحمه الله تعالى، وأحقه بالصالحين.

ب: التعريف بتفسيره "التحرير والتنوير":

"تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" هو كتاب تفسير القرآن من تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامعة الزيتونة بتونس. هذا الكتاب هو محصّلة خمسين عاماً من العمل، حيث وضع فيه مؤلفه نظراته التجديدية والإصلاحية، وتميز هذا التفسير بالاهتمام بالجوانب البلاغية للقرآن، وعدم الاتكال كليةً على التراث العلمي للتفسير، حيث ينتقد الطاهر بن عاشور الكثير من المفسرين، لأنهم اعتمدوا بحسب رأيه على من سبقوهم دون إضافة قيمة علمية تذكر، وقد قال في هذا الصدد: «لأنهم توهموا أن ما خالف النقل عن السابقين إخراج للقرآن عما أراد الله به».

1: انظر: من موقع الجزيرة، الموقع الإلكتروني:

<https://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons/2015/3/3/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A7%D9%87%D8%B1-%D8%A8%D9%86-%D8%B9%D8%A7%D8%B4%D9%88%D8%B1>

ويعد "التحرير والتنوير" - وهو العنوان الذي اختصره الشيخ بن عاشور في التمهيد لكتابه الذي نشرته في تونس الدار التونسية للنشر عام 1984 في 30 جزء - من أهم التفاسير الذي يرجع إليها المختصون، واستطاع مؤلفه من خلاله أن يضع نفسه بين أبرز علماء تفسير القرآن، وهو من أبرز تفاسير العصر الحديث التي كُتبت على وفق نظرية النظم عند الجرجاني¹.

وقد بيّن منهجه فيه في مقدمته فقال: " وَقَدْ اهْتَمَمْتُ فِي تَفْسِيرِي هَذَا بِبَيَانِ وَجُوهِ الإِعْجَازِ، وَنُكْتِ البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَأَسَالِيبِ الإِسْتِعْمَالِ، وَاهْتَمَمْتُ أَيْضًا بِبَيَانِ تَنَاسُبِ اتِّصَالِ الأَيِّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَلَمْ أُغَادِرْ سُورَةَ إِلَّا بَيَّنْتُ مَا أُحِيطُ بِهِ مِنْ أَعْرَاضِهَا؛ لِئَلَّا يَكُونَ النَّاطِرُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ مَقْصُورًا عَلَى بَيَانِ مُفْرَدَاتِهِ وَمَعَانِي جُمْلِهِ كَأَنَّهَا فِقْرٌ مُتَفَرِّقَةٌ تَصْرِفُهُ عَن رَوْعَةِ انْسِجَامِهِ.... وَعَسَى أَنْ يَجِدَ فِيهِ المُطَالِعُ تَحْقِيقَ مُرَادِهِ، وَيَتَنَاوَلَ مِنْهُ فَوَائِدَ وَنُكْتًا عَلَى قَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ، فَإِنِّي بَدَأْتُ الجُهدَ فِي الكَشْفِ عَن نُكْتِ مِنْ مَعَانِي القُرْآنِ وَإِعْجَازِهِ خَلَّتْ عَنهَا التَّفَاسِيرُ، وَمِنْ أسَالِيبِ الإِسْتِعْمَالِ الفَصِيحِ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ هِمَمُ النَّحَارِيرِ، بِحَيْثُ سَاوَى هَذَا التَّفْسِيرُ عَلَى اخْتِصَارِهِ مُطَوَّلَاتِ القَمَاطِيرِ، فَفِيهِ أَحْسَنُ مَا فِي التَّفَاسِيرِ وَفِيهِ أَحْسَنُ مِمَّا فِي التَّفَاسِيرِ، وَسَمَّيْتُهُ: تَحْرِيرَ المَعْنَى السَّيِّدِ وَتَنْوِيرَ العَقْلِ الجَدِيدِ مِنْ تَفْسِيرِ الكِتَابِ المَجِيدِ، وَاخْتَصَرْتُ هَذَا الإِسْمَ بِاسْمِ: التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ مِنَ التَّفْسِيرِ " والكتاب يعد بحق من أحسن تفاسير المعاصرين وأرسخها علماء، وأقواها تحقيقاً، مع ما فيه من بعض المآخذ والتي لم يسلم منها كتاب من كتب التفسير في الغالب، وهي مغمورة في بحر فوائده².

المطلب الثالث: المقاصد الكبرى من خلال القرآن الكريم:

من خلال ما هو مشتهر ماثوث في الساحة المعرفية، يمكننا القول إن كان الشاطبي المعلم الأول في علم المقاصد على الصعيد المنهجي والتأسييس العلمي؛ فإن ابن عاشور هو مُعَلِّمُهَا الثاني حيث وسَّع دائرة البحث في المقاصد وأعطاه وجهة جديدة تتجاوز به حدود السعي لتأسييس مجرد أصول تشريعية عقلية كلية قطعية. ولعلّ من كتب في علم المقاصد من بعده -رحمه الله- الأستاذ علال الفاسي المغربي، لكن الفاسي لم يكن مقصده على المقاصد نفسها، بل سلك مسلك الاستطراد في عدة قضايا وموضوعات

1: انظر مقال: مبتكرات القرآن عند الشيخ الطاهر ابن عاشور، محمد الصالح غريسي، كلية الآداب واللغات، جامعة الوادي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، رقم: 07، سنة: 2015، ص: 250.

2: انظر: مقال: نبذة عن حياة الشيخ الطاهر ابن عاشور وعقيدته ومنهجه في التفسير موقع:

[/https://islamqa.info/ar/answers/161770](https://islamqa.info/ar/answers/161770)

صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية". وراح الشيخ يؤصل لهاته الثلاث بالقول:

فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتركيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. **وأما الصلاح الجماعي** فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموآثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية. **وأما الصلاح العمراني** فهو أوسع من ذلك إذا هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع¹.

والشيخ يرى أن المقاصد الكبرى تمظهرت من خلال القرآن الكريم خصيصاً، فجعل الغرض الأكبر من القرآن هو إصلاح الأمة وأحوال المجتمع، إذ يقول: "إن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها، وإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان ونبذ العبادة الضالة واتباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طرق النجاح وتركية نفوسهم ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدة الدعوة".

وأصل الشيخ لمسألة تغيير المقاصد الكبرى بحسب الأزمنة والأمكنة والحاجة المتجددة لأحوال الناس، وأن هذا الأمر من أهم خصائص القرآن الكريم في أنه صالح بمقاصده التي يصبو إليها لكل زمان ومكان، يقول رحمه الله "فكانت آيات القرآن مستقلاً بعضها عن بعض، لأن كل آية منه ترجع إلى غرض الإصلاح والاستدلال عليه، وتكميله وتخليصه من تسرب الضلالات إليه فلم يلزم أن تكون آياته متسلسلة، ولكن حال القرآن كحال الخطيب يتطرق إلى معالجة الأحوال الحاضرة على اختلافها وينتقل من حال إلى

1: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984م، ج: 01، ص: 38.

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم قال: نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين [يوسف:3] أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده [الأنعام: 90] وللتحذير من مساوئهم قال: وتبين لكم كيف فعلنا بهم [إبراهيم: 45] وفي خلالها تعليم، وكنا أشرنا إليها في المقدمة الثانية.

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب. وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال: يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا [البقرة: 269] وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تضم إليه تجربة وهم العرفاء فجاه القرآن بقوله: وما يعقلها إلا العالمون [العنكبوت: 43] هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون [الزمر: 9] وقال: ن والقلم [القلم: 1] فنبه إلى مزية الكتابة.

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه: قل فأتوا بسورة مثله [يونس: 38] ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه. هذا ما بلغ إليه استقرائي وللغزالي في «إحياء علوم» الدين بعض من ذلك.

فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بآتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا كما أشرنا إليه في المقدمة الأولى، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ، وللتنزيل اصطلاح وعادات، وتعرض صاحب «الكشاف» إلى شيء من عادات القرآن في متناثر كلامه في تفسيره¹.

وهي ثمان مقاصد لا بد للخائض في تفسير القرآن الكريم الأخذ بها، واعتبارها، وعن المقاصد الكبرى للقرآن الكريم فإن الشيخ جعلها أربعة مقاصد:

1: السماحة: يعتبر الشيخ بن عاشور أن السماحة "أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها" فقد جاء الإسلام ليحقق الوسطية والاعتدال "فالتوسط بين طرفي الإفراط

1: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، ج: 01، ص: 39-42.

والتفريط هو منبع الكمال"، حتى جعل السماحة مرادفا للإسلام. فمن خلال استقراء النصوص ومعاينة نظام الشعائر ورخص العبادات والمعاملات يبدو جليا أن الأصل هو التيسير والسماح لا التشديد والعسر" واستقراء الشريعة دل على أن السماحة واليسر من مقاصد الدين"، وتتجلى قيمة هاته الإضافة في رفع الحرج عن الأمة وبالارتقاء بهذا المقصد إلى مستوى المقاصد العليا التي لا يجوز التغافل عنها، يعيد الشيخ ابن عاشور ترتيب الأوليات في بناء الأحكام وصياغتها، وليس هذا الأمر موضوع شك أو تساءل، بل ارتقى عنده إلى مرتبة القطعيات، وقد نص الشاطبي على "أن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمور بلغت مبلغ القطع".

2: **المساواة:** تعتبر المساواة مقصدا عاما من مقاصد التشريع، وهي السبيل إلى تحقيق العدل بين جميع المتقاضين عند تنزيل الأحكام وتطبيقها، بقدر ما تحقق التوازن الإجتماعي والنوعي بين الأفراد والجماعات، فقد نزل التكليف مستويا بين الجنسين، وتكون الحقوق كذلك بين المسلمين وغيرهم، وجماع ذلك ما يقوم عليه اليوم مفهوم المواطنة من مراعاة للتساوي بين الأفراد أمام القانون.

وفي تاريخنا الإسلامي نماذج من مشاهد المساواة في مجالس القضاء بين فئات مختلفة، وفي الحديث النبوي ما يجلو ذلك: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت يدها، إذ لا سبيل لحفظ الدين دون مساواة بين الأفراد والجماعات

والجهات تنزيلا لأحكامه في المجتمع، ومساواة تنزع الطبقية والمحاباة في المعاملات، والأمر ملح بين الأبناء وأفراد العائلة ومع غير المسلمين.

إن في ترسيخ مقصد المساواة في المجتمع نزع لفتيل الحقد والتباغض بين الأفراد، وامتصاص لأسباب الفتنة بين الناس، بما يحقق الاستقرار والأمن، ومن هنا يتأكد إصلاح المجتمع مكونا أساسيا من مكونات الرؤية الحضارية في الدرس المقاصدي لدى الشيخ ابن عاشور، وفي غياب هذا المقصد بقاء للظلم والبغضاء والحقد في النفوس وإهدار لمعنى من المعاني السامية التي جاءت بها الشريعة على الناس.

3: **الحرية:** لقد اعتبر الشيخ ابن عاشور الحرية بما هي نقيض للعبودية أو مرادف للمسؤولية والخلاص، مقصدا مكيئا من مقاصد الشريعة، التي توفر فرصة للإنسان للممارسة شعائره دون ضغوط أو إكراه، بعيدا عن الوصاية أو التهديد، ورغم غفلة الفقهاء عن هذا المقصد وعدم ترشيحهم إياه في صدارة المقاصد السامية المنشودة، فقد أقر الشيخ ابن عاشور " أن الشارع متشوف إلى الحرية، فذلك استقراؤه من تصرفات الشريعة التي دلت أن من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية"، ويتسع مقصد الحرية ليشمل حرية الذات المناقضة للعبودية على النحو الذي استقر عنده المفهوم لغويا واصطلاحا عند الفقهاء مقابلا للرق والاستعباد.

وتفويض عنها حريات أخرى إذ "يحدد الطاهر بن عاشور للحرية مجالات ثلاث، هي **مجال الاعتقاد، ومجال القول، ومجال العمل**"، فالشيخ يعالج قضية الحرية من جهة حرية الاعتقاد بناء على منطوق القرآن في عدم الإكراه، ودعوة الناس برفق دون إلزام أو تضيق على معتقداتهم الدينية السابقة، ورغم وجاهة هذا المبدأ فإنه يصطدم ببعض

النصوص التي تقف موقفا صارما من حكم الردة ودعوة الناس إلى كلمة التوحيد بقوة" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"، ولا يزال الموقف التقليدي حائرا إزاء التعامل مع أهل الذمة من جهة فرض الجزية وإفراهم بالتسمية وشكل من اللباس وتعريض نسائهم للسخي، دون جرأة في مراجعة النصوص المحيطة بهاته الرؤية. وتمثل حرية التفكير والتعبير مجالا يقره الشيخ ابن عاشور لنشر المعرفة والتحرك من أجل التعليم والتعلم والصدع بالحقيقة كاملة وإنتاج المعرفة دون قيود.

4: **حفظ الأمة:** حينما غفل الفقهاء القدامى عن فقه الجماعة ومصالحة الأمة وانشغلوا بفقهاء الفرد ومصالحة الذات، وأرادوا إصلاح الأفراد دون اتجاه نحو إصلاح الأمة، والنهوض بها من جهلها وتخلفها وتبعيتها، فقد انشغل الشيخ ابن عاشور في سياقه جهد الإصلاحية ومراجعة المنظومة الأصولية الفقهية في تحرير الأولويات وإعادة ترتيبها، بما يجيب عن سؤال حضاري حارق، الأول أكده شكيب أرسلان وهو: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ والآخر بسطه أبو الحسن الندوي وهو: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

إن الإجابة المقاصدية عندئذ ركن ركين من مشروع إصلاح الحضاري الذي وضع أكانه محمد عبده وجمال الدين الأفغاني واساطين الإصلاح بتونس، فقد اعتبر الشيخ ابن عاشور عند ضبط مقاصد تفسير القرآن الكريم في تفسيره " أن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها"¹.

خاتمة:

مما تم تقريره وتحريره يمكن أن نخلص للنتائج الآتية:

- 1: الشيخ ابن عاشور أول من كتب وصنف في علم المقاصد منهجيا وتأصيليا، بعد الإمام الشاطبي.
 - 2: صنف الإمام ابن عاشور كتابا في المقاصد سماه بمقاصد الشريعة، وله في التقصيد القرآن وطرائقه مساهمات يمكن استكشافها من خلال تفسيره التحير والتنوير.
 - 3: جعل للخائض في كتاب الله تعالى تفسيراً وتأويلاً، ثمانية مقاصد لا بد من فهمها واستيعابها، ووضعها صب عينيه، وهي:
- الإعجاز بالقرآن / المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير/التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين/ القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم/ سياسة الأمة/ التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة/ تهذيب الأخلاق/إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.

1: انظر مقال: د بو عجاجة جمال، تجديد مقاصد الشريعة عند الشيخ الطاهر بن عاشور، جامعة الزيتونة، مجلة الحوار المتوسطي، العدد: 08، 2017م، ص: 271-275.

4: جعل الإمام ابن عاشور مقاصد قرآنية عليا أربعة، هي:

السماحة، المساواة، الحرية، حفظ الأمة.

5: يرى الإمام ابن عاشور أن غلبة الفكر الأصولي الفقهي، جعل القدامى لا يهتمون بمقصد الأمة وتوحيد صفها.

6: يرى الشيخ أن المقاصد القرآنية الكبرى، تتغير بحسب الزمان والمكان والحاجة البشرية المتجددة، وأن هاته المسألة من أهم خصائص الشريعة الإسلامية، كونها صالحة لكل زمان ومكان.

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1: مقاصد الشريعة ، طه جابر العواني، جمع: عبد الجبار الرفاعي، دار الهادي، بيروت، ط:01، ت:2001م.
- 2: مقاييس اللغة، أحمد بن فارس القزويني، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ط:01، ت:1979م.
- 3: لسان العرب، محمد بن مكرم، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط:03، ت:1414هـ.
- 4: الموقع الإلكتروني للدكتور: كمال الزبيدي
<https://sites.google.com/site/tarbiapointcom/mojaraba> ،

5: مقال: التقصيد الجديد وأثره في قبول الرواية الحديثية وتأويلها، بوبكر كافي، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، عدد رقم: 57، مجلد: 25، سنة: 2021م.

6: مقال: مبتكرات القرآن عند الشيخ الطاهر ابن عاشور، محمد الصالح غريسي، كلية الآداب واللغات، جامعة الوادي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، رقم: 07، سنة: 2015م.

7: مقال: نبذة عن حياة الشيخ الطاهر ابن عاشور وعقيدته ومنهجه في التفسير موقع: [/https://islamqa.info/ar/answers/161770](https://islamqa.info/ar/answers/161770)

8: انظر: مقال: قراءة في عقلية الطاهر بن عاشور المقاصدية، د. خباب بن مروان الحمد، شبكة صيد الفوائد، على الرابط: <http://www.saaid.net/Doat/khabab/192.htm>

9: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط، ت: 1984م .

10: مقال: د بوعجاجة جمال، تجديد مقاصد الشريعة عند الشيخ الطاهر بن عاشور، جامعة الزيتونة، مجلة الحوار المتوسطي، العدد: 08، 2017م.